التكوين البنيوي وإنتاج العنف:
دولة إسرائيل إيديولوجيا وسوسيولوجيا

الكتاب: ثقافة العنف في سوسيولوجيا السياسة الصهيونية
المؤلف: الدكتور عبد الغني عماد
دار الطليعة, ٢٠٠٢,(٢٠٨ص)

مراجعة:
د. قصي الحسين
أستاذ في الجامعة اللبنانية

" ثقافة العنف في سوسيولوجيا السياسة الصهيونية" من الأبحاث الجادة القليلة التي أهمت بمتابعة وتحليل التنشئة الإيديولوجية للأجيال داخل الكيان الإسرائيلي وذلك من خلال قراءة سوسيولوجية أكثر منها سياسية. وهي قراءة كشفت الصور المموهة والأشكال المزيفة لحقائق السياسة الإسرائيلية وممارستها وخلفياتها القائمة على العنف والإرهاب.
يمكن لمصطلح" الثقافة" أن يكون مضللاً في بعض الأحيان, خاصة حين يرتبط بفهوم" العنف", بحيث تصبح" ثقافة العنف" شيئاً آخر بعيداً عن الثقافة بمضمونها الإبداعي والإنساني, بل شيئاً لصيقاً بالإبداع في مجال العنف والحقد والعنصرية وكراهية الآخر. فالثقافة الصهيونية ليست إلا قناعاً يخفي حقيقة العنف والإرهاب الذي تقوم عليه, وهو في حقيقته السوسيولوجية ليس عنفاً وإرهاباً عابراً بقدر ما هو عنف مؤسسي يتغذى من وقائع الإجتماع الصهيوني وحقائق السياسة التي تقوم على الإستيطان والتهجير والعنصرية.

يذهب الباحث الجامعي الدكتور عبد الغني عماد في كتابه المذكور إلى توظيف طبيعة هذه الثقافة التي تقوم على العنف المؤدلج والممأسس بإعتباره عنفاً بنيوياً لصيقاً بالمشروع التأسيسي للصهيونية, وهو كذلك ليس نتاج اللحظة تاريخية, وليس ردة فعل مؤقتة أو ظرفية, وليس إفرازاً لوقائع إقتصادية أو إجتماعية عابرة , بقدر ما هو حاجة وضرورة وحقيقة ثابتة ومتساوقة مع طبيعة المجتمع/الكيان, لذلك هو عنف بنيوي بقدر ما هو ثقافة منهجية .

يقرأ الباحث تفاصيل الإجتماع الصهيوني ، ويفكك بنيته ، ويحلل الممارسة والتطبيق معتمداً التحليل السوسيولوجي منهجاً للدراسة والتقصي ويميط اللثام عن حوافز العنف في الدولة العبرية بكل أصوله وجزورة وتداعياته وإشكالياته ووظائفه / وذلك من خلال المقارنة ، بل المواجهة بين الإيديولوجيا والسوسيولوجيا بحيث يتبدى الكيان الصهيوني بكل تجلياته الخفية والمعلنة ، الظاهرة والمضمرة ، ككيان منتج للعنف والإرهاب بحكم طبيعته وتكوينه البنيوي

مثلث العنف الذي يتوقف عنده الكتاب يقوم على"القوة والإستيطان والإصطفاء العنصري", وهو مثلث لا يتمظهر فقط بالممارسة العسكرية, بل أيضاً بالفكر

والسياسة والثقافة. فالإيديولوجيا الصهيونية تؤطر ألوان الثقافة التي يمكنها أن تعيد إنتاج الشخصية الصهيونية في أنماط سلوكية تخدم بإستمرار وظيفة الإغتصاب والإستيطان تجاه" الآخر" العربي الفلسطيني, وبذلك يجري شحن ثقافة العنف وإستنهاض عناصر الدفع فيها بصورة ذاتية ودونما حاجة إلى تعبئة إعلامية أو نفسية أو جماهيرية, وهي تتقوى كلما مارست الضحية حق الدفاع عن النفس, لأن ذلك يعني أن "الآخر " لا يزال يقاوم وينبض بالحياة, وفي ذلك تهديد وجودي ل"الذات" الصهيونية ينبغي القضاء عليه.

تستبدل الصهيونية الثقافة بمفهومها ومضمونها الإنساني والأخلاقي بثقافة العنف المادي والمعنوي, العسكري والفكري, تماماً كما يستبدل الجنرالات في الجيش الإسرائيلي بزّتهم العسكرية حين يتنقلون ما بين الحياة العسكرية والسياسية, وفي كلتا الحالتين الجوهر الواحد. فالدولة تتأسس على العنف كما المجتمع, فهو ينهض على العنصرية والإستيطان. ويميز الباحث منهجياً بين ثلاثة أنواع من العنف الصهيوني, العنف المادي, العنف الرمزي, والعنف الفكري الإيديولوجي. الأول يستخدم القوة الصافية, المدمرة والجارفة للحجروالقاتلة للبشر, والثاني يستخدم الإذلال والتحقير والحط من الكرامة لتهديم التماسك المعنوي والقدرة على المقاومة وفرض الهزيمة النفسية والداخلية على الإنسان الفلسطيني, أما الثالث فيتمثل في تجريد الضحية من الحقوق من خلال التهميش والتغييب والإلغاء وسنّ القوانين العنصرية كقانون العودة الذي يعطي أي يهودي في العالم حق العودة إلى إسرائيل في أي وقت يشاء, ولو لم تطأ قدماه أرض فلسطين, فيما ينكر هذا الحق على ملايين الفلسطينين الذين طردوا من أرضهم وأرض آبائهم وأجدادهم, كنتيجة لأكبر عملية ترانسفير جرت في القرن العشرين.

من الضروري إذن حسب الباحث الدكتور عماد الكشف عن جذور العنف الضارب في عمق الشخصية الإسرائيلية من الناحية السوسيوبوليتيكية, وهو أمر لا يمكن تظهيره دون تظهير أصالته التوراتية الكامنة, حيث تمكن الميتولوجيا المؤسسة للإرهاب وكراهية الأخر بكل عمق. أما الحفر المعرفي للطبقات الجيوثقافية التي تتكون منها الشخصية اليهودية الصهيونية فهو ضرورة في هذا النوع من الأبحاث, لأنه يؤمن كشفاً علمياً دقيقاً للأسس والمنطلقات التي تتحكم بأنماط السلوك الإرهابي لدى مختلف الجماعات الإسرائيلية.

والباحث في جذور الإرهاب الإسرائيلي, لا بد أن يقع على المفاهيم الأسطورية والرمزية في التوراة والتلمود والتي تتحول مع الصهيونية عبر التوظيف الإيديولوجي المعاصر إلى مبررات سياسية راهنة, مشحونة بالكراهية والعنف والعنصرية, تظهر بأبشع صورها في إجتياح المدن وقتل الأبرياء وإستباحة الممتلكات والمجازر الجماعية.

وتحليل بنية الأساطير التوراتية الزائفة خطوة أساسية لمعرفة كيفية تحول الميتولوجيا القديمة, إلى إيديولوجيا معاصرة, وكيفية تحول الإقصوصة الرمزية والتراث الإسطوري الشفوي إلى بناء سياسي أو خطاب قومي إستنهاضي يسقط من الماضي المهجور على البرهة المعاصرة واللحظة الراهنة, بهدف جعل"الرابط التاريخي" بين اليهود والمشتتين في العالم وأرض فلسطين حقيقة سوسيولوجية, ولو كانت مؤسسة على القهر والعنف والزيف. لذلك كثيراً ما ردد قادة الصهاينة: نحن لسنا بقادمين, ولكنا عائدون(ص١١).

وجذور الإرهاب تستكمل فصولها في التلمود, ففيه تأصيل للمفاهيم والعقائد التوراتية, يرتسم من خلالها منظومة علاقات مع الأغيار تتأسس على الكراهية والإستعلاء, فهم شعب الله المختار, فمن يضرب يهودياً كأنه ضرب الله.
وبهذا تتحول تعاليم عنيفة وبدائية وقبلية تقوم على القتل والإبادة, إلى طقوس وشعائر مقدسة عند الأصوليين اليهود(ص٣٥) وإلى مفاهيم مختزنة تشكل الوعي والذهنية السائدة عند الغالبية الساحقة من يهود اليوم. لذلك يقول المؤلف أنه لم يكن غريباً أن يتحول غولدشتاين صاحب مجزرة الحرم الإبراهيمي, إلى بطل قومي يهودي لأنه قتل"الاغيار"العزّل وهم يؤدون الصلاة, فقبله تحول بيغن صاحب مجزرة دير ياسين, وشارون صاحب مجزرة صبرا وشاتيلا إلى رموز قومية بطولية.

ويبين المؤلف كيف أن الصهيونية على يد مؤسسيها نجحت في إستيعاب اليهودية التوراتية والتلمودية في قالب معاصر فقد كان مؤسسها تيودرو هرتزل, وهو العلماني والقريب من الإلحاد, يقول أن على اليهودي المختلف عن سائر الأصول البشرية أن لا ينسى أصله. فهو ينتمي إلى شعب الله المختار صاحب الأرض الموعودة والتي لا حدود لها من الناحية الجيوبوليتيكية, سوى بعض الإشارات الغامضة في التوراة, مما جعل القادة الإسرائيليين يقولون أن حدود إسرائيل هي حيث يقف آخر جندي صهيوني.

يحلل الدكتور عماد سيكولوجية العنف الإسرائيلي من خلال طرحه عدة أسئلة: هل هذا العنف مجرد رد فعل أم هو عنف مؤسسي؟ وهل له علاقة بالبنية الذهنية الصهيونية وبالتربية والتنشئة السياسية؟ وهل تمتلك إسرائيل" شخصيةقومية" أم إنها مكان تلتقي فيه جماعات قومية متعددة نجحت في إنتاج نمط سلوكي يقوم على العنف والقوة والتوسع(ص٧٣). هذه الأسئلة الإشكالية تطرح على بساط الشك الذي يقترب إلى حدود الإستحالة, إمكانية صناعة السلام مع نمط سلوكي ينتج عنفاً تجاه الآخر. فهذا المجتمع أو التجمع يعاني من خلل بنيوي وتكويني يجعله عاجزاً عن صناعة السلام , فسلوكيات أفراده في الغالب تتقرر وفق قوالب منمطة, وليس وفق تراكم ثقافي يبني شخصية قومية سوية(ص٨٩)

في " ذهنية الزمن المفقود ومأزق القوة" وهو أحد فصول هذا الكتاب يرصد الباحث الكيفيات التي يتم من خلالها الإسقاط الزائف, من التاريخ إلى الحاضر, من الملاحم الأسطورية إلى الوقائع الراهنة, ويكشف عن الآليات التربوية التي تغذي هذه الذهنية وتعزز أنماطها السلوكية. ويتابع في فصل آخر خصصه لدراسة آليات التعذيب في السجون الإسرائلية, من خلال مقابلات وشهادات حية أجراها الباحث مع العشرات ممن ذاقوا مرارة المعتقل والسجن وعذابات الجلاد الذي يصّر على الظهور بمظهر الضحية.

إن تقصي وجوه الإرهاب وجذور العنف وتجلياته دفع الباحث إلى تسليط الضوء على مفهوم"الترانسفير" في إسرائيل بين السياسة العمالية والأصولية الدينية, معتمداً بالإضافة إلى المصادر الموثقة العربية, مصادر ومراجع إسرائلية حديثة جرى الكشف عنها مؤخراً. ويميز المؤلف في هذا المجال بين ثلاثة أنواع من الإستعمار: الكولونيالي الذي يسيطر على الأرض ويعمل على نهب خيراتها ، والإستيطاني الذي يسيطر على الأرض ويستعبد البشر ويوظفهم في أعماله ومشروعاته ليضمن بقاء مجموعات بشرية من جنسه بينهم, والإستيطاني الإحلالي الذي يعمد من خلال التهجير أو الإبادة أن طرد السكان الأصليين وتجميعهم في بانتاستونات كما فعل النظام العنصري في جنوب أفريقيا, ولهذا النوع الإستعماري الأخير تنتمي الصهيونية. فالإستيطان هو التعبير الأكثر همجية ووحشية للإستعمار, فهو لا يكتفي بالإستيلاء على الارض بل يعمل إلى طرد أو إبادة السكان الأصليين, أصحاب الأرض, وإستجلاب آخرين ليقيموا عليها ويتنعموا بخيراتها.

وفي قراءة مستقبلية يتوقف المؤلف بالتحليل والنقد عند ظاهرة"ما بعد الصهيونية" والتي كثر عنها الحديث في بعض الأوساط الأكاديمية الإسرائيلية. ويخلص فيها إلى إعتبار أن تفكيك النموذج الصهيوني ونقده من قبل هذه الحركة لا يستهدف نقض بنيته ووضع حد لنتائجها الإرهابية المرعبة, بقدر ما يستهدف تخفيف تناقضاته وإجراء عملية تجميلية لوجوهه البشعة والعنصرية لتصبح أكثر مقبولية في محيط يرفضها بصيغتها الحالية, وهي صيغة في كل الأحوال دخلت في مأزق تاريخي ووجودي.

إن تفكيك الشخصية الصهيونية وقراءة تضاريس المفاهيم البنيوية التي تشكل ذهنيتها المعرفية هو الغرض الأساس لهذا الكتاب. وقد وفقّ الباحث في إظهار العنف والإرهاب الصهيوني كحالة بنيوية وتكوينية وكمركب عضوي أكثر منه كأمر عارض أو ظرفي, بحيث أصبح ثقافة عامة تشكل الذهنية وتؤسس أنماط السلوك, الأمر الذي يفضي إلى إستحالة إنتاج عملية سلمية بأي صيغة من الصيغ, وهذا هو لب الإشكال التاريخي في الصراع العربي الإسرائيلي.